الافتتاحية

كم كانت فرحتنا نحن - المؤرخين الأكاديميين - عندما خُصصت جائزة الأمير سلمان بن عبدالعزيز، أمير منطقة الرياض، رئيس مجلس إدارة دارة الملك عبدالعزيز والرئيس الفخري لجمعية التاريخ السعودية، للرواد في حقل التاريخ والعاملين فيه من الباحثين. وقد كنت - ولله الحمد - ضمن أول مجموعة حظيت بالجائزة منذ عامين. وكان لهذه الجائزة أثرها في الأوساط التاريخية، بشكل خاص، والإنسانية، بشكل عام؛ إذ هي أول جائزة داخلية تهتم بالأكاديميي. أما الجوائز الأخرى فهي عامة، لم ينل الأكاديميون منها شيئاً بعد. وعلى كلٍ، فالجوائز لها تاريخ طويل في التاريخ العربي، فقد كانت تُعطى للشعراء في بلاط الغساسنة، وفي بلاط المناذرة، وفي سوق عكاظ.

وفي العصر الإسلامي أصّل الرسول الأعظم، صلى الله عليه وسلم، هذا الخلق العربي الأصيل؛ فمنح كعب بن زهير بن أبي سلمى بردته في مسجده بالمدينة المنورة لقاء قصيدته: «بانت سعاد»، تلك القصيدة التي أصبحت نموذجاً للشعراء ينسجون على منوالها. فكان أول الشعراء اتباعاً لها محمد بن سعيد البوصيري في قصيدة «البردة»، ثم شاعر عصر النهضة أمير الشعراء أحمد شوقي وقصيدته الشهيرة «نهج البردة»، وغير هذه وتلك من القصائد التي سلك الشعراء فيها مسلك كعب بن زهير الشاعر المخضرم، الذي افتدى نفسه من رسول، الله صلى الله عليه وسلم، بتلك القصيدة، فكانت البردة الشريفة مكافأة له. ويا لحظه أن لامس جسده بردة لامست جسد رسول الله، صلى الله عليه وسلم. وهكذا سلك الخلفاء وأمراء المؤمنين في العصور الإسلامية مسلك الرسول الكريم في تكريم العلماء والفقهاء والشعراء، بالأعطيات والمنح وبوزن الكتب، مترجمة أو مؤلفة، ذهباً أحياناً أخرى؛ ولذا، فإن الاهتمام بالمؤرخين الأكاديميين نمط نعتز به لأنه يقدِّر مجموعة من العلماء ويلقي الضوء على أعمالهم، لأنهم نِعْمَ من يرصدون حركة الزمن والحدث والمكان، وكلها تجتمع في حركة الإنسان فكره وثقافته وأعماله ودوره في كل ذلك.

* * *

لا أدري كيف أشكر زميليّ وصديقيّ الأستاذ الدكتور أحمد بن عمر الزيلعي، والأستاذ الدكتور سعد بن عبدالعزيز الراشد؟ فقد فاجآني وأفرحاني، هما ومجموعة من أحبائي من زملائي وأصدقائي من أعضاء هيئة التدريس والعاملين في قسم الآثار والمتاحف وفي قسم التاريخ في كلية الآداب بجامعة الملك سعود، بتقديم كتاب تذكاري إليّ، يضم واحداً وثلاثين بحثاً باللغتين العربية والإنجليزية، تُوج بكلمة رائقة ومؤثرة سطرها يراع صاحب

السمو الملكي، الأمير المحبوب بين كل المثقفين، سلطان بن سلمان بن عبدالعزيز. وكلمة ضافية من الزميل الكريم الأستاذ الدكتور أحمد بن عمر الزيلعي، ألبسني فيها من كريم أخلاقه وحسن سجاياه ما هو أجدر به؛ ذلك لأن ما قدمته لجامعتي وزملائي وأصدقائي ما هو إلا من منطلق القول المعروف: عامل الناس بما تحب أن يعاملوك به، وخالق الناس بخلق حسن.

والبحوث التي ضمها الكتاب من أصدقاء كرام، من الشرق والغرب من السعودية والأردن والبحرين واليمن ومصر وسوريا والسودان والهند وألمانيا والنمسا وبريطانيا، هي عصارة أفكارهم ارتأوا تقديمها لمن يرون أنه جدير بالتكريم ببحث علمي يستفيد منه الحاضر والباد. وربما كان هذا العمل العلمي تقليداً جديداً في مجتمعنا السعودي، أما في العالم العربي فقد برز منذ عقد من الزمن أو يزيد. وفي أوروبا كانت بدايته في ألمانيا باسم (Festschrift) وقد قُدم أول عملٍ لعالم عام ١٦٤٠م، أي منذ قرابة أربعة قرون.

ولعل هذا العمل انتقل إلى العالم الغربي عن العالم العربي إذ كانت صقلية والأندلس وبلاد الشام من المعابر التي عبرت منها الحضارة العربية، عندما كانت في أوجها ومثلاً يحتذى. ولا ننسى أن الشاعر البريطاني تشوسر كتب شعره بالإنجليزية بعد زيارته للأندلس، بعد أن كان الشعر في أوروبا، بشكل عام، وبريطانيا، بشكل خاص، يكتب باللاتينية، ما أحدث ثورة في الأدب الإنجليزي. وفي هذا المجال يمكن أن نشير إلى حادثة لها صلة بالأمر نبهني إليها الزميل الأستاذ الدكتور عزت عبدالمجيد خطاب، أستاذ الأدب الإنجليزي بجامعة الملك سعود، وهو ما حدث بين اللورد تشسترفيلد والأديب صومئيل جونسون، الذي عاش في القرن الثامن عشر؛ إذ قدّم جونسون خطة معجمه إلى اللورد بناءً على ما عرف عن اللورد من ميول أدبية وتشجيع للأدباء. أعجب اللورد بالخطة وأثنى عليها... وكان جونسون يأمل في رعاية اللورد له؛ لكنه أهمله مدة سبع سنوات. وفي المقابلة أهمل جونسون اللورد... حتى إذا بلغ المعجم مرحلة الطباعة تنبه اللورد وحاول إصلاح ما فاته، فراح يستعرض جونسون بنشر مقالين يمدح فيهما جونسون ومعجمه. ومع أن جونسون كان تواقًا إلى المدح، لا سيما من عِلية القوم، إلا أن الحيلة لم تنطل عليه. فقد أدرك أن اللورد يهدف بمديحه إلى أن يهدي جونسون معجمه إليه، وهذا ما رفضه جونسون بكل إباء وعنف. وكتب جونسون إلى اللورد رسالة تعد من أروع أنماط التراسل بين الأديب واللورد (عزت خطاب : قراءة ثانية «نصوص»، كتاب الرياض ٧٧،ص ١٣٩-١٤٣ أبريل ٢٠٠٠).

* * *

فَرِحَ العالم العربي باختيار «البتراء» ضمن عجائب الدنيا السبع الجديدة. وقد كنت ضمن الفرحين؛ لأن العرب لم تأتهم مناسبة أو نصر يفرحهم، وما هي إلا انتكاسات متوالية بحيث أصبحت نشرة الأخبار لا تنبئ إلا عن قتل وحرائق وتفجيرات واختطاف ومساجين في سجون عبر المحيطات، وسجون سرية. تلك هي الأجواء التي نعيش فيها، والأعداء يفتكون بنا ويسرقون تراثنا وثرواتنا. ألم أقل لكم لم يعد هناك ما يُفرح! ولذا، كان اختيار

البتراء فرصة لنفرح، ونشعر أنه إذا كان حاضرنا لا يسر المعاصرين، فإن ماضينا يربت على أكتافنا ويقول: هأنذا أعوضكم عن حاضر لم تستطيعوا الدفاع عنه. لقد أضعتم أندلسكم، وتحول مسجد (أيا صوفيا) في اسلامبول (اسطنبول) مدينة الإسلام، بذكاء حاد من اليونسكو، إلى متحف بعد ترميمه الذي كان القصد منه إزالة الغلاله الرقيقه التي طمس بها محمد الفاتح، رحمه الله، صور المسيح والصلبان والدلالات المسيحية، ليعود المسجد بهذا الترميم إلى سابق عهده كنيسة، وكأنّ محمد الفاتح لم يفز ولم ينتصر!؟ وأضعنا بيت المقدس منذ أربعين عاماً، وأصبح لعبة في يد يهود يعملون به ما يشاءون من حفريات، بدأتها بعثات أجنبية قبل الاحتلال بعقود كثيرة، وأخيراً دق الغزاة تاريخنا القديم والإسلامي انتقاماً من نبوخذ نصر ومن هارون الرشيد وصلاح الدين ومن حضارتنا، التي أشادتها العقول العبقرية في عصر النهضة الأشورية والبابلية والإسلامية، حتى مئذنة سامراء «الملوية» لم تسلم من مكر الأعداء! تلك المئذنة التي كانت نموذجاً فريداً بين مآذن الشرق والغرب منذ العصر العباسي وحتى الآن، سوى ملوية جامع ابن طولون بالقاهرة، التي بنيت على نسق ملوية سامراء.

البتراء درة من درر الآثار العربية، وهي مرحلة من مراحل المفاخر التي نعتز بها من مأرب جنوباً، مروراً بنجران والفاو والعلا والحجر وتيماء والجوف، ثم البتراء الوجه المشرق على الحضارات بين الهلال الخصيب ووادي النيل، حتى جرش وبصرى الشام وتدمر وما والاها من روائع فن العمارة وفنون النحت والزخرفة، تلك التي شاركت فيها الحضارات العابرة والمستقرة. فقد استطاع العربي بذوقه الرفيع أن يمزج بين كل تلك العناصر في لوحات زاهية تخطف الأبصار وتبهج النفس.

ماذا لو تقدم العرب بأكثر من البتراء؟ ماذا لو تقدمت مصر بمعبد الكرنك، وتقدمت سوريا ببصرى الشام، وتقدمت لبنان ببعلبك، وتقدمت فلسطين بقبة الصخرة، وتقدمت اليمن بمأرب، وتقدمت تونس بكركوان؟ لأفلحنا في كسب أكثر من عجيبة من عجائب الدنيا السبع؛ ولكن يكفي أننا فزنا كعرب بالبتراء، وكمسلمين بتاج محل.

رئيس هيئة التحرير